مجلة جامعة الملك سعود، م ١٢، الآداب (٢)، ص ص٤٣٣-٤٤٩ (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

الساخرة : قراءة في أنموذج شعري قديم

عبدالله محمد العضيبي

أستاذ مساعد، قسم الأدب، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى
مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ٢٠/ ٨/ ١٤١٨هـ ؛ وقبل للنشر بتاريخ ١٦ / ١/ ١٤١٩هـ)

ملخص البحث . يتناول هذا البحث أنموذج الساخرة ، والذي يشكل جانبا من توظيف المرأة في الشعر القديم . إذ تعكس النصوص الشعرية من خلاله صورة الرجل / الشاعر في موقف دفاع عن ذاته أمام النظرة السلبية إليه . وقد رصد المواقف التي يُستدعى فيها هذا الأنموذج ، وهي التقدم في العمر ، أو المعاناة من بعض العيوب الشكلية كالسواد والهزال ، أو معاناة الأسر أو السجن . كما وضّح أسلوب الشاعر في الدفاع عن الذات في كل موقف . وقد أشار بعد ذلك إلى أن كثيرا من النصوص الشعرية ليست إلا مقطوعات أو قصائد قصيرة تتناول موضوعا واحدا، كما تتخذ نمطا شكليا معينا . وحاول البحث أن يقدم تفسيرا لاستدعاء هذا الأنموذج ، ورأى أن المرأة في هذا السياق ليست إلا رمزا للمجتمع في نظرته السلبية لهذه النماذج الإنسانية من أفراده ، وأن اختيار الشعراء لها إنما يعود لعوامل معينة تنبثق من نظرة العرب القدامى إلى المرأة ، وليس بسبب حوادث واقعية معينة فحسب كما قد تُوهِم المصادر الأدبية القديمة .

شغلت المرأة حيزا واضحا في تراثنا الشعري القديم ، ولعل كونها محورا لواحد من أهم الأغراض الشعرية- وهو الغزل - يؤكد ذلك . إذ كان لهذا الغرض حضور قوي في مختلف عصور الشعر العربي منذ العصر الجاهلي . بل كان في واجهة الحركة الشعرية في عصر بني أمية ، كما ظهرت خلال هذه العصور مجموعة من الأسماء الشعرية التي لم

تتجاوز في إبداعها فن الغزل مثل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة والعذريين وابن الدمينة والعباس بن الأحنف وغيرهم .

غير أن حضور المرأة في الشعر لم يكن مقصورا في هذا الإطار ، وإنما امتد إلى أغراض الشعر العربي المختلفة . كما أن ذلك اتخذ شكلا آخر من خلال مايقوم به الشعراء من توظيف للمرأة للتعبير عن موضوعات معينة . حيث يتم استدعاؤها من خلال أنموذج معين يرى الشاعر أنه يمكن أن يكون مدخلا للتعبير عن تجربته الشعرية . ومن هذه النماذج أنموذج (الساخرة) .

وهذه التسمية مستقاة للدلالة على هذا الأنموذج الذي استدعاه الشعراء القدامى من خلال استخدام هذه المفردة (ساخرة) ، أو إحدى المفردات التي تتفق معها في الاشتقاق (سخرت ، تسخر) ، أو مفردات مرادفة مثل (هزئت ، تهزأ) ، أو مشابهة مثل (عيرتني)، أو من خلال مفردة تدل على فعل يدل على السخرية مثل (تضحك) ، أوعبارات يوردها الشاعر على لسان المرأة ونستشف منها ذلك .

والنصوص التي احتوت هذا الأنموذج تكشف عن صورة الرجل / الشاعر في حالة من الضعف ، سواء أكان هذا الضعف حقيقيا أم يعكس نظرة الآخرين . فكل منها يشكِّل صوت دفاع الرجل / الشاعر عن ذاته في محاولة لتجاوز هذه الصورة السلبية وتغييرها . وكأنها تمثل إعادة بناء لشخصيته بعد هدمها من خلال السخرية .

ومن خلال قراءة النصوص التي ظهر فيها هذا الأنموذج ، يمكن القول إن استدعاء الشعراء له يتمثَّل في عدد من المواقف المعينة ، والتي تتبين فيما يلي :

أولا : الشيخوخة أو التقدم في العمر ، والذي قد يرمز إليه عادة بظهور الشيب ، أو التجاعيد على الوجه ، أو الانحناء ، أو الاتكاء على العصا ، وماقد يصاحبه ـ أحيانا ـ من سوء الحال . والسخرية حول ذلك هي الأكثر دورانا في الشعر القديم ـ وهي ترمز في مثل هذا الموقف إلى تصور معين بانتهاء الدور الفعلي للفرد في قبيلته أو مجتمعه أو أسرته ، إذ لم يعد يمتلك القدرة التي تمنحه القيام بالأمور المنوطة به والتي تفرضها عليه رجولته ، وإنما أصبح بدلا من ذلك بحاجة إلى الرعاية ، وكأن النص الشعري يعبر عن مواجهة لهذه النظرة ، ودعوة لرؤية أخرى أكثر تقديرا .

وقد كان الشعراء يدافعون عن ذاتهم إزاء هذا الموقف ، وينهجون طرقا مختلفة في ذلك ، لعل أهمها :

١ ـ الاعتراف بالواقع والتسليم به ، مع محاولة تبرئة الذات من خلال التذكير بأن ذلك مرتبط بطبيعة الإنسان الذي لابد أن يصيبه الكبر ، إذ لايملك أحد القدرة على مقاومة الزمن .

فالمخبل التميمي يستنكر سخرية زوجته منه لتأثره بتعاقب الأيام عليه ـ وهذا مايرمز إلى الكبر ـ وهو يرى أن ذلك أمر يسير إذ لم يصل به إلى الفناء كما أصاب غيره ، ولذلك يستدعي ـ في هذا السياق ـ شخصيتين تاريخيتين أفنتهما الأيام ، حيث يقول :(١)

أتهْـزأُ منّي أمُّ عـَمْرةَ أنْ رأتْ نهارا وليلا بلَّياني فأسْـرعـا
فإن أكُ لاقيتُ الدَّهاريرَ منهُما فقدْ أفنيا لُقْمانَ قبلُ وتُبَّعـا

وأما علبة بن يزيد السلمي ، فإنه يرفض أن يكون الشيب عارا على الإنسان ، إذ إن مرحلة الشباب ليست غير ثوب معار لابد أن يسترد فيفقده لابسه ، فهو يقول :(٢)

تَهَزَّأتْ عرسيَ واسْتنْـكرتْ شَيْبي ففيها جَنَـفٌ وازْورارْ
لاتُكْثري هُزءا ولاتَعجـبي فليسَ بالشيب على المرء عارْ
عَمْـرُكِ هل تدْرينَ أن الفَتى شَبَـابُهُ ثوبٌ عليه مُعـَـارْ

٢ ـ رفض الادعاء أن يكون الشيب دلالة الكبر ، وذلك بالكشف عن تفسير مقنع له .

وقد يكون ذلك بالإشارة إلى تلك الحروب التي خاضها الشاعر في سبيل قبيلته ، وهذا مانقف عليه في قول عبدالله بن جنح النُّكري :(٣)

---

(١) أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ، *الحماسة* ، تحقيق لويس شيخو ، ط٢ (بيروت : دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ) ، ٩٣ .

(٢) صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري ، *الحماسة البصرية* ، تحقيق عادل سليمان جمال (القاهرة : المجلس الأعلى للشـؤون الإسلامية ، ١٣٩٨ هـ)، ١ : ٧٦ . الجنف : الميل .

(٣) أبو سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي ، *الأصمعيات* ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون ، ط٢ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ م) ، ١١٤ . القناة : العصا . عنيت : قصدت أي أراده العدو بالأذى . الججح : السيد الكريم . الغلاصم : جمـــع =

زَعَمَ الغَواني أنْ أردنْ صَريمتـــي أنْ قدْ كَبرتُ وأدْبرتْ حاجـاتي
وضَحكنْ مني ساعة وسَـــألنني مُذْ كمْ كَذا سنة أخذتُ قَنـــاتي
ماشبْـــتُ من كبر ولكنِّي امـرؤٌ أغْشى الحروبَ وماتشيبُ لـدَاتي
أحْمَيْ أُناسي أنَ يبَـــاحَ حَريمُهم وهمُ كذاكَ إذا عَنيتُ حُمـــَاتي
منْ مَعْشر يأبى الهوانَ أخوهُـــمُ شُمٌّ الأُنوف جَحَاجـح سَـادات
عَزُّوا وعَزَّ بعزِّهمْ من جَـــاوروا وهمُ الذُّرى وَغَلاصَمُ الهـــامات
إنْ يَطلبوا بجريرة ينْأونَهـــــا أو يُطلَبـــوا لايدركوا بـــتراتَ

والشاعر يستهل الدفاع عن ذاته مع اللفظة الأولى ، إذ يستخدم الفعل (زَعم) بكل مايوحي به من دلالة الشك في الصدق . ثم تأتي الجملة الاعتراضية (أن أردن صريمتي) لتفسر الموقف السلبي للغواني منه وتفضحه ، فيصبحن موضعا للاتهام ، فليست مقولتهن إلا وسيلة لغاية خفية ؛ ممايشكك في صحة تلك المقولة . والشاعر وإن اعترف بعد ذلك بالشيب فإن ذلك ليس اعترافا بالكبر (ماشبت من كبر) وإنما تمهيدا لتفسيره . وهذا التفسير تشكِّل القبيلة عاملا فاعلا فيه ، إذ كان خوضه للحروب في سبيل الدفاع عن محارمها خلف معاناته من الشيب . و الشاعر لايلبث أن يتجاوز الحديث عن ذاته إلى الحديث عن قبيلته ، وكأنما يسعى للتأكيد على نسيانه هذه الذات وتكريسها لخدمة القبيلة ، وكأن ذلك يشكِّل رسالة تسعى إلى تكوين وعي لدى قبيلته بأهميته .

وأما عمرو بن جعد الأزدي ، فإنه يرى أن الشيب أمر حتمي لكل من يمتلك طموحه ، إذ إن هذا الطموح المبكر ، وسعيه لتحقيقه عبر رحيله الدائم ، كان خلف مااعتراه من الشيب ، إذ يقول :(٤)

عيرَّتْني ميمونةُ الشـــيبَ في الرأ س وقدْ كنتُ أنْ أشيبَ جديرا
منْ يكُنْ همُّهُ رفيعا كهـــــمِّي ويبُـاكرْ جوبَ البلادَ صـغيرا
يلق مثلَ الذي لقيتُ من الشَّيـب فلاتعـــجبي لذاكَ كثـــيرا

= غلصمة وأصلها رأس الحلقوم وتستعار بمعنى الشرف . الجريرة : الجناية . ينأونها : يبعدونها . الترات : جمع ترة وهي الثأر .

(٤) البحتري ، *الحماسة* ، ١٩٢ .

٣ـ ادعاء الشاعر بأن تقدمه في العمر لايعني ضعفه ، إذ لايزال يتمتع بماكان يمتلكه من القوة . وهذا مايتبين في قول عباد بن شداد :(٥)

يابؤسَ للشيخ عبَّـــاد بن شـــدَّاد أضْـــحى رهينـــةَ بيت بيَنَ أعواد
وتهْزأُ العرسُ مني أنْ رأتْ جسديَ أحـــدَبَ لم تبـــق منهُ غيرُ أجْلادَ
فإنْ تريْني ضعيفـــا قاصـــرا عُنُقي فقدْ أُكَعْكِـــعُ عني عدْوةَ العـــاديَ
وقدْ أفيءُ بأثواب الرئيـــسَ وقـــدْ أغْدو على سَلْهَب للوحش صيَّـاد

فالشاعر يعكس فيَ بيتيه الأَولين حالة البؤس التي يعايشهاً في ظلَ شيخوخته ، والتي شكلت نوعا من السجن الذي جعل منه عاجزا ، فقد احدودب جسده ، ونحل جلده . غير أنه على الرغم من هذا الضعف الذي أصابه ، يشعر أنه يمتلك القدرة على ممارسة حياة الرجال ـ كما كان في الماضي ـ مقاوما هذا الواقع الذي يحاصره .

ويختصر حريث بن عناب معاناته مع الشيخوخة خلال رمزين ، أما أحدهما فالقميص البالي بمايدل عليه من شدة الفقر ، وأما الآخر فالعصا التي يستخدمها لتساعده على حمل جسمه الذي أنهكه الكبر . وعلى الرغم من هذاالاعتراف فإنه يصر على احتفاظه بشجاعته عند مواجهة الضيم ، إذ يقول :(٦)

هزئتْ نســاءُ بني قُليعٍ أن رأتْ خَلَقَ القميص على العصا يتَركَّعُ
وجَعَلنني هُزؤا ولو يعرفْـــني لعَلمنَ أنَّي عـــند ضيْمـــيَ أروعُ

وكلا الشاعرين غير مقنع في دفاعه ، ذلك أن الصورة التي رسمها كلاهما لذاته ، تتناقض تماما مع مضمون هذا الدفاع .

---

(٥) عبدالحميد محمود المعيني ، شعر بني تميم في *العصر الجاهلي* جمع وتحقيق (بريدة : نادي القصيم الأدبي ، ١٤٠٢ هـ) ، ٢٤٣ . رهينة : حبيس . أجلاد : جمع جلد وهو الجسم . أكعكع : أحبس وأمنع . أفيء : أفاء الشيء جعله فيئا أي غنيمة . سلهب : الطويل من الخيل . والشاعر هو عباد بن شداد اليربوعي التميمي ، من المعمرين في الجاهلية ، يذكر أنه عاش مائة وثمانين عاما .

(٦) أبو الفرج الأصفهاني ، *الأغاني* (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، بيروت : دار التراث العربي ، د . ت .) ، ١٤ : ٣٨٥ . الأروع : الشجاع . والشاعر هو حريث بن عناب الطائي ، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، مقل .

٤ ـ استدعاء الماضي لمواجهة مرارة الحاضر ، فالشاعر يعاني من التناقض بين واقعه وماضيه ، وكأنه بالعودة إلى الماضي وذكرياته يمنح لنفسه شيئا من الإحساس بالذات عن طريق التذكر .

ويتجسد هذا الموقف في مقدمة قصيدة لعبيدالله بن قيس الرقيات ، إذ تهزأ منه فتاة شابة ذات مكانة رفيعة ، وهذا الاستهزاء محوره طلائع الشيب على الشاعر ـ بماتدل عليه من تقدم في العمر ـ فهي تستنكر أن يكون هو ابن الرقيات بما عرف عن علاقاته بالمرأة . ولاشك أن ذلك يدل على ضعف الشاعر وعدم قدرته على التواصل مع النساء ، وهذا أكثر إيلاما له لكونه أحد الشعراء الغزليين . يقول ابن الرقيات :(٧)

ألاهزئتْ بنَا قرشيَّـــةٌ يهـــــــتزُّ موكبُهـــا
رأتْ بي شـــيْبة في الرأ س مـــــني ماأغيِّـبـُها
فقالتْ ابنُ قيـــــس ذا وغيرُ الشـــيب يُعجبُها
رأتْني قدْ مَضـــــى مِّني وغضـــــَّاتٌ صَواحبُها

والشاعر يقر بتقدمه في العمر ، ولايحاول تناسي هذا الواقع ، فهو لايخفي شيبـــه (ماأغيبها) ، كماأنه يصرح بمضي أكثر عمره (رأتني قد مضى مني) ، وهذا مايدفعه إلى اتخاذ العودة إلى الماضي وسيلة للدفاع عن ذاته ، إذ يتحدث عن إحدى مغامراته مع فتاة تتمتع بالجمال والمكانة الرفيعة ، قائلا :

ومثلُك قدْ لهوتُ بها تمامُ الحســن أعْيبُهـــا
لها بعـــلٌ غيورٌ قـــا عدٌ بالباب يَحجبُهـــا
يراني هكَـــذا أمْشـي فيُوعـــدُهاَ ويضرَبُهـــا
ظَلَلتُ عـــلى ثمَارقها أُفدِّيهاَ وأخْلبُـــــها
أحدثُّـــها فتـــؤمنُ لي فأصدقُها وأكذبُـــها

فهو يرسم لذاته صورة المعشوق الذي تتمناه المرأة ، وتتمرد علَى زوجها للقائه ، كماتخضع

(٧) عبيد الله بن قيس الرقيات ، *ديوانه* ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم (بيروت : دار صادر ، د . ت .) ، ١٢١ .

لسيطرته (لهوت بها) . وهذه الصورة تتناقض كليا مع صورة الشاعر في مقدمة القصيدة، إذ كان محل سخرية . فهذا الدفاع موجه في حقيقته للذات لا للآخر ، وكأن الشاعر باستدعائه للماضي يتلذذ بذكراه في مواجهة واقعه الجديد .

ثانيا : معاناة الشاعر من بعض العيوب الشكلية ، سواء أكانت خلْقية كالسواد وغيره، أم كانت عارضة كالشحوب والهزال وغيرها ، ومصدر هذه المعاناة إحساسه بسطحية نظرة الآخرين له ، إذ إن هذه النظرة تدور حول الجانب الشكلي فيه ، دون محاولة التعمق وإدراك الواقع الحقيقي له ، وكأن الشاعر من خلال نصه يريد إزالة هذه النظرة ، وقد كان ذلك يتم عبر طريقين :

١ ـ الكشف عن جانب آخر مضيء في شخصيته يغفل عنه هؤلاء ، على الرغم من كون هذا الجانب يشكّل المعيار الحقيقي الذي ينبغي أن يحتكم إليه في تقويم الإنسان . وهذا ما نلمسه في قول السُّليك بن السُّلكة :(٨)

هزئتْ أمامةُ أنْ رأتْ بيَ رقـــة وفَما به فَقمٌ وجـــلدٌ أســودُ
أُعطي إذا النفسُ الشّعاعُ تطلعت مالي وأطعنُ والفرائصُ ترعدُ

والسليك يشير في البيت الأول إلى أسباب الاستهزاء ، وهي نحوله وسواده وبروز أسنانه ، وهذه العيوب الخلْقية التي ولّدت هذه النظرة نحوه ، لاقيمة لها في تصوره ، إذ إنه يتميَّز إلى جانبها بصفات أكثر أهمية تتمثل في أهم القيم عند العرب ، وهما الكرم والشجاعة . وهاتان الصفتان تتخذان لديه بعدا آخر ، إذ يلتزم بهما عند الضرورة الملحة إليهما ، حيث يصبح الالتزام صعبا .

٢ ـ محاولة تقديم تفسير مقنع للآخرين يبرز فيه الأسباب التي تقف خلف معاناته، والتي كانت موضعا للسخرية . ويتمثَّل ذلك في قول عبيد بن أيوب العنبري :(٩)

---

(٨) السليك بن السلكة ، *أخباره وشعره* ، دراسة وجمع وتحقيق حميد آدم ثويني وكامل سعيد عواد، ط١ (بغداد: مطبعة العاني ، ١٤٠٤ هـ) ، ٥٠ . الفقم : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى . النفس الشعاع : التي انتشر رأيها فلم تتجه لأمر جزم . الفرائص : جمع فريصة وهي اللحمة بين الجنب والكتف .

(٩) عبيد بن أيوب العنبري ، شعره في *كتاب أشعار اللصوص وأخبارهم* ، جمع وتحقيق عبدالمعين الملوحي، ط١ (دمشق: دار طلاس ، ١٩٨٨ م) ، ٢ : ١٤٠ .

ليتَ التي سخرتْ مني ومنْ جمَلي ذاقتْ كماذقْتُ من خوف وأسْفار
ومنْ طلاب وَطــُلاَّب ذوي حَنَق يرمُونَ نحويَ من غيظ بأبْصــارَ
إمَّا تريْنَي وسربالي يطــيرُ كمَــاً طارتْ عقيقةُ قرْم غير خــــوَّارَ
إنْ يقتلوني فأَجــالُ الكمَاةُ ـ كما خُبرْتُ ـ قتلٌ وماً بالقتَل من عَــارَ
وإنْ نجوتُ لــوقت غيره فعَســى وكلُّ نفس إلى وقت ومَقْــدارَ

والشاعر في هذا النصّ لم يَصرح بمدار السخرية منهُ ، وإنما ترَكَ ذَلك لمخيلَة المتلقي الذي يستطيع الوصول إليها من قراءته للأبيات ، إذ لايلبث أن ينقل لنا معاناته . فحياة الصعلكة ـ بما فيها من تمرد و ارتكاب للجرائم ـ جعلته مطاردا ، مما حوّل حياته إلى سلسلة متواصلة من السفر ، إذ كان الشاعر يتحرك خلال هاجس الخوف الذي لاينفصل عنه . وهويبدع في تفسير هذا الخوف حين يضفي على مطارديه سمات الحنق والغيظ التي تفرض عليه ألا يتمكنوا منه ، إذ إن غايتهم هي قتله كما يدل البيتان الأخيران . إن إشارة الشاعر إلى خوفه وأسفاره ومطارديه وهروبه منهم توحي بما كان يعانيه من شحوب وهزال يعكس تلك المعاناة .

وعبيد العنبري كان التعبير عن الخوف ظاهرة بارزة في شعره ، حتى إنه بلغ لديه درجة التوهم ، كما يتبين من قراءة عدد من مقطوعاته . (١٠) فليس غريبا أن يكون تفسيرا لما أصاب الشاعر من ضعف كان سببا في السخرية منه .

وهو في مقطوعة أخرى يؤكد حالة الرعب التي يعيشها ، إذ يربط معاناته بحياته في

---

(١٠) من مثل قوله :

لقد خفت حتى خلت أن ليس ناظر إلى أحد غيري فكدت أطيــر
وليس فم إلا بسري محــــدث وليــس يد إلا إلي تشيــــر

أشعار اللصوص ، ٢ : ١٣٦ .

وقوله :

لقد خفت حتى كل نجوى سمعتها أرى أنني من ذكرها بسبيــــل
وحتى لويت السر عن كل صاحب وأخفيته من دون كل خليــــل

أشعار اللصوص ، ٢ : ١٥٤ .

الصحراء ، والتي تتحول لديه إلى عالم مخيف تمتزج فيه الأسطورة بالواقع ، ويبث الفزع في نفوس ساكنيه ، فهو يقول :(١١)

وساخرة مني ولوْ أن عيْنَـــها رأتْ ما ألاقيه من الهـــول جنَّت
أزلُّ وسَعْلاةٌ وغولٌ بقـــفْرة إذا الليلُ وارَى الجنَّ فيه أرنَّـــتَ

والشاعر لايكتفي فَي هذين البيتين بتفسيرٍ معاناته فقط ، وإنما يمتدحَ ذاته ، إذ كان تأثره بذلك طفيفا ، بينما قد يدفع غيره للجنون .

وأما الخطيم المحرزي فإنه لايختلف عن عبيد العنبري في الربط بين طبيعة حياته وبين ماطرأ عليه من تغيير كان سببا في السخرية منه ، إذ إن صعلكته جعلته يقطع أيامه في الصحراء حيث تشكِّل الوحشة والقلق والأرق هما يوميا لاينفك عنه ، إذ يقول : (١٢)

وقائلة يومـــا وقدْ جئْتُ زائرا رأيتُ الخطيـــمَ بعْدنا قدْ تخَـدَّدا
أمَا إنَّ شيْبي لايقـــــومُ به فتى إذا حضرَ الشحُّ اللئيمَ الضَّفَنْـددا
فلاتسْخري مني أمامةُ أنْ بَـــدا شحُوبيْ ولاأنَّ القميصَ تقَـدَّدا
فإني بأرض لايرى المرءُ قرْبَهـــا صديقا ولاتحْلى بها العينُ مرْقَـدا
إذا نامَ أصْحَابي بها اللَّيـــلَ كلَّهُ أبتْ لاتذوقُ النَّومَ حتى تَرى غدَا

ثالثا : المعاناة من الأسر أو السجن ، فالأسير والسجين يدركان طبيعة موقفهما الذي يتسم بالضعف ، إذ إن ذلك مايدل عليه واقعهما ؛ لكونهما استسلما لخصميهما ، كما أن الحالة التي يعيشان فيها تجسد ذروة الذل والعجز ، لافتقادهما للحرية التي تشكل مطلبا إنسانيا ، إضافة إلى أن الأسير كان يتعرض قديما إلى الاستعباد والاضطهاد من قبل آسريه . والسخرية ـ في هذا السياق ـ تعكس واقع الأسير ومعاناته .

فعندما أسر عبد يغوث بن وقاص ، قال قصيدة يبث فيها معاناته من الأسر . فذكر في ذلك السياق أن عجوزا ضحكت سخرية منه ، وهو يستغرب فعلتها فليس هو الوحيد

---

(١١) *أشعار اللصوص*، ٢ : ١٢٧ . أرنت : صاحت .

(١٢) الخطيم المحرزي ، شعره في *أشعار اللصوص وأخبارهم* ، ٢ : ٥١ . الضفندد : الضخم الأحمق . والشاعرهو أحد الشعراء اللصوص ، عاش في صدر الإسلام ، وأدرك أوائل العصر الأموي .

الذي يتم أسره ، إذ يقول :[١٣]

وتَضحَكُ مني شيْخةٌ عبْشَميةٌ كأنْ لم تَر قبْلي أسيرا يمَانيا

وفي ظل هذا الموقف الأليم ، يفخر الشاعر بذاته ، مظهرا مايتمتع به من قيم أصيلة تأتي الشجاعة في مقدمتها ، ذلك أن السياق يقتضيها ، فالشاعر يريد أن يؤكد أن أسره لم يكن لضعف فيه ، وإنما لسبب آخر أشار إليه قبل ذلك ،[١٤] كماتحدث عن إكرامه لضيوفه وإيثاره لهم على نفسه ، وكأنه يشير إلى ماستفقده قبيلته بغيابه عنها ، فهو يقول :

وقدْ علمَتْ عرْسي مُليكةُ أنني أنا الليثُ معْدُوا عليَّ وعاديا
وقد كنتُ نحارَ الجَزور ومُعْملَ الـ ـمطيِّ وأمْضي حيثُ لاحيَّ ماضيا
وأنحرُ للشَّرب الكرام مَطيَّتيْ وأصْدعُ بينَ القَيْنتيَن ردائيا
وكنتُ إذا ماالخَيلُ شَمَّصَها القَنا لَبيقا بتصْريف القناة بَنانيا
وعادية سومَ الجراد وزعتُها بكفّي وقدْ أنحوْا إليَّ العواليا

ويصورً شاعر آخر هو قَيسبة بن كلثوم السكوني موقفه في لحظة الأسر وقد طوقته الأغلال ، وأصابه الوهن ، وهذا ماكان وراء الاستهزاء به . وهو لايجد مايدافع به عن نفسه إلا الحديث عن شجاعته وإقدامه ، قائلا :[١٥]

هزئتْ جَارتي وقالتْ عَجيبا إذ رأتْني في جيدي الأغلالُ
إنْ تريْني عاري العظام أسيرا قدْ براني تضعْضعٌ واخْتلالُ
فلقدْ أقدمُ الكتيبةَ بالسَّيـ ـفِ عليَّ السلاحُ والسربالُ

---

(١٣) المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، *المفضليات* ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر و عبدالسلام محمد هارون، ط٦ (القاهرة : دار المعارف ، د . ت .) ، ١٥٨ . الشرب : جمع شارب . أصدع : أشق . شمصها : نفَّرها . اللبيق : الحاذق . وعادية : يعني الخيل . سوم الجراد : انتشاره وهو يريد أن الجراد كالخيل في كثرتها . وزعتها : كففتها . أنحوا إلي . وجهوا إلي . والشاعر هو عطارد بن قران ، وهو أموي ، هجا جريرا ، وحبس بنجران .

(١٤) وهو قوله :

ولو شئت نجتني من الخيل نهدة ترى حولها الحو الجياد تواليا
ولكنني أحمي ذمار أبيكم وكان الرماح يختطفن المحاميا

(١٥) الأصفهاني ، *الأغاني* ، ١٣ : ٥ .

فالشاعر يتحدث عن قوته وشجاعته ، إذ يكون في طليعة الكتيبة عند مواجهة الأعداء على الرغم من أن واقعه يتناقض مع ذلك ، وهو إذ يستخدم صيغة المضارع (أقدم) إنما ليدلل على قرب عهده بذلك .

وتتكرر هذه الصورة عند عطارد بن قران ـ وهو أحد الصعاليك ـ الذي حبس في نجران ، فهو يذكر أنه تعرض للاستهزاء بسبب القيود التي كبلته . وهو ـ كما فعل عبد يغوث ـ يستغرب من ذلك ، فليس هو الرجل الوحيد الذي يقع في هذا الموقف العصيب ؛ ليكون موضعا للاستهزاء ، إذ يقول :(١٦)

لقدْ هزئتْ منِّي بنجرانَ أنْ رأتْ قياميَ في الكَبلين أمُّ أبَـــان
كأنْ لمْ تر قبلي أسيرا مُكبـَّلا ولا رجلا يرْمى به الرَّجَـــوانَ

والشاعر لايكتفي بهذا الدفاع الضعيف ، كما أنه لايعمد إلى ذكر مآثره بشكلَ مباشر ، وإنما يستعين بمخيلته الشعرية ليكون أكثر إقناعا ، وذلك من خلال تشبيه نفسه بجواد تم تقييده بعد أن كسب سباقه ، وهي صورة لها دلالتها ، فالقيد ليس إلا مرحلة في حياته بعد جهد وتفوق ، فهو يقول بعد ذلك :

كأني جَوادٌ ضمَّهُ القيدُ بعْدمَـــا جرى سابقا في حلبة ورهـــان

فالنصوص السابقة تجسِّد جميعها لحظات من الضعف عَايشها الشعَراءَ فحاولَوا تجاوزها عبر الدفاع عن ذواتهم .

ولعل مما يتضح من خلال قراءة النصوص الشعرية التي احتوت أنموذج الساخرة أن كثيرا منها ليس إلا مقطوعات أو قصائد قصيرة تدور حول موضوع واحد لاتتجاوزه إلى غيره . وهي تتخذ شكلا بنائيا واحدا ، فالشاعر يستهلها عادة بالإشارة إلى السخرية ومصدرها وأسبابها ، ولايستغرق ذلك إلا بيتا واحدا ، ومن النادر أن يمتد إلى أكثر من ذلك إلا عند سرده عبارات على لسان الساخرة . أما بقية الأبيات فإنها تتناول دفاع الشاعر عن ذاته . وهذا الدفاع يتخذ ـ غالبا ـ اتجاهين :

---

(١٦) أبوعبيدالله محمد بن عمران المرزباني ، *معجم الشعراء* ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٩ هـ) ، ١٦٢ . الرجوان : رجوا البئر طرفاه ، وهو كناية عن التعرض للتهلكة .

١ ـ تمجيد الذات ، وذلك بالكشف عما تتمسك به من قيم أصيلة تدل على مكانتها ، وتلغي أي تصور سلبي عنها .

٢ ـ تفسير العوامل الكامنة خلف أسباب السخرية ، وكأن الشاعر يعتذر عما أصابه .

غير أن ثمة نصوصا شعرية تتضمن أنموذج الساخرة ، ولكنها تأتي ضمن قصائد تتسم بتعدد موضوعاتها ، إذ قد تكون في مقدمتها أو بين ثناياها أو في نهايتها . وهذه النصوص لاتختلف في بنائها عن النصوص الأخرى إذ تنسج على منوالها . غير أن مايهمنا هنا البحث عن مدى العلاقة بين أنموذج الساخرة والسياق الشعري الذي جاء في إطاره .

إن التأمل في مثل هذه النصوص يمكن من خلاله الوقوف على نمط من العلاقة بينها وبين السياق الشعري الذي اندرجت فيه .

فقصيدة عبديغوث بن وقاص الحارثي ـ الآنفة الذكر ـ يبدو الربط بين أجزائها ممكنا . فهذه القصيدة تتكون ـ في تصوري ـ من قسمين :

أما القسم الأول منها فتمثله الأبيات ١ ـ ٧ ، والشاعر يدعو صاحبيه إلى التوقف عن لومه ، إذ إن الموقف الذي يعيشه أشد إيلاما ، ولأن اللوم غير مجد ، كما أن ممارسته ليست من طبيعته .

ألا لاتلُوماني كَفَى اللومَ مَابيا ومَالكُما في اللومِ خيرٌ ولاليا (١٧)
ألمْ تعْلما أنَّ الملامةَ نفعُهـا قليلٌ ومالومي أخَي منْ شمَاليا

غير أنه بعد ذلك يوجّه اللوم إلى قومه ، وليس هذا متناقضا مع موقفه السابق ، لكنه أراد أن يكشف عمن هو أجدر باللوم منه ، إذ إنه بعد ذلك يؤكد أن وقوعه في الأسر إنما كان بسبب تفانيه في حماية قبيلته ، على الرغم من قدرته على النجاة بذاته ، فهو أسير لتضحيته ، لا لتهاونه وعجزه .

---

(١٧) الضبي ، *المفضليات* ، ١٥٦ . الكلاب : يوم الكلاب الثاني بين أهل اليمن وتميم وفيه أسر عبديغوث . صريحهم : خالصهم ومحضهم في النسب . الموالي : الحلفاء . النهدة : المرتفعة الخلق . الحو : ماضرب لونها إلى الخضرة . النسعة : سير من الجلد . اسجحوا : سهلوا ويسروا في أمري . البواء : يقال باء فلان بفلان إذا قتل به وصار دمه بدمه . تحربوني : من حربه إذا أخذ ماله وتركه دون شيء . المعزبين : المتنحين بإبلهم . المتاليا : الإبل التي نتج بعضها وبقي بعض .

فيا راكبا إمَّا عرضـــتْ فبَلغَـنْ ندامايَ منْ نجرانَ أنْ لاتَلاقيـــا
أبا كرب والأيهمـــين كليهمـــا وقيسا بأعْلى حضْرموْتَ اليَمانيا
جزى اللّه قومي بالكلَاب مَلامة صريحَهمْ والآخرينَ المَواليـــا
ولو شئتُ نجْتني من الخيلَ نهْدةٌ تَرى خلفَها الحـُوَّ الجيادَ تواليـا

أما القسم الثاني من القصيدة فيَضم الأبيات ٨ـ٢٠ ، وفيه يصوِّر معاناتـه مع الأسر ، من خلال تصوير ماحدث له من آسريه ، ومحاولته إقناعهم بإطلاق سراحه ، وحزنه على مصيره الذي صار إليه ، وحرمانه من متعة الحياة .

أقولُ وقدْ شدُّوا لسانيْ بنَسـْعة أمعشرَ تيم أطْلقوا عن لسانيـا
أمعْشرَ تيم قدْ ملكْتُمْ فأسْجحوا فإن أخاكمْ لم يكُن منَ بَوائيـا
فإنْ تَقتلُوني تقْتلوا بيَ سيِّـــدا وإنْ تطْلقوني تَحربوني بماليـا
أحَقّا عبادَ الله أنْ لستُ سـامعا نشيدَ الرِّعاء المُعزبينَ المتَـــاليا

وفي ظل هذه المعانَاة يأتي حضور الساخرة ـ التي تشَكل جانبا من معاناته بما ترمز إليه ـ وذلك لتكون تمهيدا لدفاع الشاعر عن ذاته ، ولتؤكد أحقية قومه باللوم لتخليهم عن هذا الفارس الكريم الذي يمثله . فمقطع الساخرة جاء امتدادا للوم عبديغوث لقومه .

وتضحَكُ مني شيخةٌ عبْشميـــةٌ كأنْ لم تر قبْلي أسيرا يمانيـا

أما قصيدة عبيد بن أيوب العنبري (ليت التي سخرت . . .) والتي وقفنا على مقدمتها ، فإن الشاعر بعد أن ينتهي من تصوير معاناته عبر أنموذج الساخرة ، ينتقل إلى المقطع الثاني من قصيدته ، والتي يعلن فيها توبته عن حياة الصعلكة ، قائلا :[١٨]

ياربِّ قدْ حلَفَ الأعداءُ واجْتهـدوا أيمانَهمْ أنَّني من داخلي النَّـــارِ
أيحلفونَ على عمياءَ ويحهـــمُ ماعلمُهمْ بعظـيم العفو غفَّـــارَ
إنِّي لَأرجو من الرحمن مغفـــرة ومنَّةً من قوام الـدَّين جبَّـــارَ
وماأخافُ هَلاكا بين عفوهمَـــا ومايفوتُهما المَستوهلُ الشَّـــاري
إليهما منهُما أنجو على وجَـــلٍ كمَا نجا خائفٌ خـاشَ لآثَـــاري
أنا الغَـلامُ عتيقُ الله مبْتَـــهلٌ بتوْبـــةٍ بعْـدَ إحـــلاءٍ وإمْرارِ

(١٨) *أشعار اللصوص* ، ٢ : ١٤٠ .

خلَّيتُ بابات جهل كنتُ أتبعُهـــا كما يودعُ سفْرٌ عَرصَـــة الـــدار
إني لأعْلـــمُ أنّي سـوفَ يتركُني صحبي رهينةَ تُرْب بين أحْجـــارَ
فَردا برابيـــــة أو وســـطَ مقبرة تَسفي عليّ رياحُ البَـارحِ الذاريَ

ولاشك أن الشاعرَ أجاد حين انتقلَ إلى هذا المقطع بعد حديثه عن إيمانه بالقدر ، إلا أن هذا ليس هو الرابط بين المقطعين . فلو أعدنا قراءة المقدمة في ضوء قراءة ما بعدها ، لأدركنا أن العنبري عندما صور شدة معاناته من الخوف والسفر ، إنما فعل ذلك ليؤكد صدق توبته ، وشدة حاجته إلى العفو من الله ثم من السلطان ليستريح مما يعانيه .

ولعل من المهم بعد هذه القراءة للنصوص الشعرية التي تناولت أنموذج الساخرة ، أن نبحث عن تفسير لهذا الاستدعاء للمرأة في هذا الإطار . فهل يعد ذلك امتدادا لاستدعائها في مقدمة القصيدة العربية القديمة ، حيث أصبح ذلك أحد أهم التقاليد الشعرية في شعرنا القديم ؟

قد يكون ذلك صحيحا إلى حدما ، غير أننا لايمكن أن نقتصر على هذا التفسير ، إذ إننا ندرك أن هذا التقليد يحتاج إلى تفسير لبدايته الأولى قبل أن يصبح تقليدا ، كما أن تكريس الشعراء له في نصوصهم يحتاج إلى تفسير آخر .

لقد قدمت المصادر القديمة بعض الروايات التي ذكرها بعض القدامى عند شرحهم لبعض النصوص الشعرية التي تضمنت ذلك .

فقد ورد ـ على سبيل المثال ـ في شرح قول عبديغوث « وتضحك مني شيخة عبشمية . . . » أن الشاعر لما أسر شدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم فضحكت منه عجوز من بني عبدشمس بن سعد . (١٩)

كماورد في تفسير قول ابن عناب « هزئت نساء بني قليع أن رأت . . . » ، أن الشاعر مر « بعدما أسن بنسوة من بني قليع ، وهو يتوكأ على عصا ، فضحكن منه ، فوقف عليهن فقال . . . » (٢٠)

---

(١٩) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، *نقائض جرير والفرزدق* ، اعتناء المستشرق بيفان (ليدن : بريل ، ١٩٠٥ م)، ١ : ١٥٣ .

(٢٠) الأصفهاني ، *الأغاني* ، ١٤ : ٣٨٥ .

فهاتان الروايتان تربطان بين السخرية وحادثة واقعية معينة ، فهل نستطيع أن نعمم ذلك على النصوص المختلفة ؟

إن من الصعب أن نقول إن كل مابين أيدينا من النصوص كانت بسبب حوادث حقيقية مشابهة ، كما أننا لانستطيع أن نجزم بصحة تلك الروايات التي ترد في المصادر القديمة . إذ قديكون ذلك من صنيع الرواة أو الشراح لتفسير هذه الأبيات التي وردت فيها قصة الساخرة . لكننا نستطيع القول إن من المحتمل جدا أن تكون بداية هذا التقليد هي حادثة واقعية ، كما أن بعض النصوص ـ أيضا ـ قد تكون كذلك ، خاصة تلك التي تتحدث عن زوج الشاعر ، حيث إن كون هذه المرأة أكثر قربا لزوجها جعلها أكثر كشفا عن معاناتها منه ، فدفع الشاعر لأن يستدعيها للتعبير عن هذه التجربة .

لكن تعميم هذا الحكم على جميع ما لدينا من نصوص ليس صحيحا . إذ إن المرأة في الكثير منها غير مقصودة بحد ذاتها ، وإنما تبدو وكأنها استدعيت لتمثِّل رمزا للمجتمع في نظرته السلبية لهذه النماذج الإنسانية من أفراده ، وهذا مايبعث على التساؤل عن السبب الذي دفع الشعراء إلى ذلك ؟

في الواقع إن ذلك يعود إلى عوامل معينة تنبثق من نظرة العرب إلى المرأة . فالرجل العربي كان يحرص على أن يكون مثار اهتمام المرأة ومحل إعجابها ، وهذا أحد مظاهر اعتزازه بذاته ، وسخريتها منه ، يعني فقدانه للاهتمام منها .

كما أن المرأة ـ قياسا بالرجل ـ هي الكائن الإنساني الأضعف ، ولهذا فإن سخريتها من الرجل تعني أنه بلغ درجة كبيرة من الضعف ، جعلت هذا الكائن الضعيف يسخر منه . وكلا العاملين السابقين يجعلان النص الشعري يجسد نمطا متميزا من المعاناة يستحوذ على اهتمام المتلقي .

يضاف إلى ذلك أن الساخرة ـ في أغلب النصوص ـ تكشف ـ كماعبر الشعراء ـ عن جهل ونظرة سطحية ، ولعلهم وجدوا في المرأة الأنموذج الذي يتخذونه مدخلا لذلك ، ويمكن أن يؤكدذلك قول عوف بن عطية :[٢١]

---

(٢١) الضبي ، *المفضليات* ، ٤١٣ .

وقالتْ كُبَيْشةُ من جهلهـــا أشيْبا قديما وحلما مُعـــارا

ومما لاشك فيه أن المرأة العربية من خلال هذا الاستدعاء في شعرنا العربي القديم تظهر في صورة سلبية ، بناء على الدلالة التي يتضمنها استدعاؤها .

وبعد ، فإن هذا البحث حاول أن يقف على جانب من تراثنا الشعري يرتبط بتوظيف الشاعر العربي القديم للمرأة في نصوصه ، وذلك من خلال دراستنا لأنموذج الساخرة .

وقد تبين أن هذا الحضور في الشعر كان مرتبطا ببعض المواقف الإنسانية التي تعرض لها الشعراء في حياتهم ـ وقد يتعرض لها أي إنسان آخر ـ والتي تواجه بنظرة سلبية من المجتمع . والشاعر عندما يستدعي هذا الأنموذج يقدم نقدا ضمنيا لهذه النظرة ، وذلك من خلال الدفاع عن ذاته . وأبياته موجهة للآخرين لتغيير نظرتهم تجاهه ، كما أنها موجهة للذات لمساعدتها على مواجهة الواقع الذي تعيشه .

وقد اتخذ كثير من النصوص التي احتوت هذا الأنموذج شكل مقطوعات وقصائد قصيرة ، كما كانت على نمط فني معين لايختلف فيما بينها ، وكأن الشعراء وضعوا لها إطارا محددا يتمسكون به ، حتى في تلك النصوص التي تضمنتها قصائد متعددة الأغراض .

As- Sakhira: A Reading in a Classical Poetic Genre

Abdullah M. al-Odhaibi

Assistant Professor, Dept. of Literature, Arabic Language College, Umm al-Qura University, Makkah al-Mukarramah, Saudi Arabia

Abstract. This piece of research deals with the *sakhira* genre of Arabic poetry. It represents one side of depicting women in classical poetry. Poems of such a genre reflect the image of man-the poet-defending himself against the negative view taken of him . The research points to the situations where this genre is present. such situations are old age, physical defects, and captivity or imprisonment. It clarifies the way the poet defends himself in each situation. The research then points to the fact that many such poems are but small pieces of poetry or short poems dealing with only one topic and taking one specific pattern. It also tries to give an explanation to the appearance of such a genre , and concludes that the woman , in this context, is nothing but a symbolic figure for society in its negative look at such samples of its human individuals. It also sees that choice of the woman by poets is due to specific factors that emanate from the way the Arab looked at women in the past and not only to specific incidents as claimed by ancient literary sources.